الحسناء

كان الجوّ ماطراً.. أحس بالدفء عندما دخل المكتبة.. مكث دقائق يستمتع بالدفء قبل أن ينهض إلى رف الكتب.. تناول كتاباً في الفلسفة الإسلامية تقارن بين الغزالي وابن رشد..

فوجيء بها تخطو خطواتها الأخيرة... لتجلس قبالة مجلسه على الطاولة نفسها.. لم يَرَ أجمل منها قَواماً.. خطر بباله بيت كعب بن زهير:

هيفاءُ مُثقلةً، عجزاءُ مُدبرةٌ لا يُشْتكى قِصَرٌ ولا طُولُ

«أهي هبة السماء إلى؟ ماالذي جعلها تختار هذا هذا المقعد؟

أهو القدر ساقها للجلوس... قبالتي؟ إنني أريد عروساً للمستقبل، بارعة الجمال.. وها هي ذي تأتي على قدميها لتجلس قبالتي..!». لكنها لم تعره اهتماماً.. لم تنظر إليه، بل بدأت تنظر في مذكرات بين يديها وانهكمت في النظر فيها.. تذكر قول إبراهيم طوقان:

وغريـــرةٍ فـــي المكتبـــة بجمالها مُتنقبـــة
أبصرتُها عند الصباحِ الـ غضٌ تشبهُ كوكَبَهْ

أحس بشعور مناقض يتصارع في نفسه.. لم تنظر إليه مما أدى إلى انسحاب مشاعره، ولكن جمالها الأخاذ كان يجذبه نحوها، بَيْدَ أنه لم يجد من الشجاعة ما يحفزه على محادثتها، عامان على الأقل... إن المرء يتشجع على محادثة فتاة عندما يكون على وشك الخطبة، ولا يؤخرها إلا وجود الفتاة المناسبة.. المحادثة عندئذ.. مبررّة.

لكنه.. كان يرفع عينيه عن الكتاب، بين حين وآخر، ويحدق فيها.. «يالله كيف يودع الحق سره في خلقه!.. لِمَ جلستِ قبالتي.. ولم تنظري إليّ.. أأنت.. على وعي بهذا الجمال البارع وتريدن أن تحرقي به قلوب العباد؟... لِمَ لَمْ تأخذي بنصيحة أحمد شوقي:

صُوني جمالَكِ عَّنا إننا بَشَرُ مِنَ التُّرابِ، وهذا الحسنُ روحاني

ترفعي أيتها الفتاة عن أن تدخلي المكتبة وأن تجلسي أمام عيني.. أمثالي من البشر.. صوني هذا الجمال الروحاني... لا تظهريه إلى... البشر.. إنك خلقت من مادة أخرى غير مادة البشر... مادة شفيفة.. إذا تسلط شعاعها على قلب عبد من عباد اللّه.. أحرقه كما تحرق النار الفراشة.. أأنت – وحيد – المغنية التي وصفها ابن الرومي بقوله:

ليتَ شِعْري إذا أدامَ إليها كرَّةَ الطَّرفِ مُبْدئٌ وَمُعيدُ
أَهِيَ شَيءٌ لا تسأمُ العيْنُ مِنْهُ أمْ لها كلَّ ساعةٍ تجديدُ

أأنت وحيد في ثوب جديد، في ثوب طالبة جامعية تنظر في مذاكرت بين يدها؟... ثم عاد ينظر في الكتاب: « .. أن تقول: التفلسف في الإسلام.. أصح من أن تقول: الفلسفة الإسلامية. وعله: يحسن أن تقول: متفلسفة الإسلام، وليس فلاسفة الإسلام.. لماذا؟ لأن الفلسفة تدعي لنفسها القدرة على تفسير الحياة، في حين أن الدين هو التفسير الحقيقي للحياة وما بعد الحياة، فكأن الفلسفة منافس للدين، تحاول أن تحل مكانه. ومتفلسفة الإسلام لم يقطعوا صلتهم بالدين بل حاولو أن يوفقوا بين الدين والفلسفة، وهذا يعني أنهم أخذوا من الفلسفة منهجها ولم يأخذوا نظرتها للحياة، فهم متفلسفة وليسوا فلاسفة. وهذا لا يقلل من شأنهم، لأن القيمة هي في عمق التفكير وليس في اتجاهه، والإسلام حث على عمق التفكير، وقرر أن العقيدة – وهي أساس الدين – لا تستقر في النفس إلا بالدليل والبرهان العقلي».

تقدم أحد قيمي المكتبة ففتح الشباك، اندفعت منه إلى داخل القاعة ذبابة.. طوفت في أرجاء القاعة ثم اتجهت نحو تلك الحسناء، وعندما أوشكت أن تحط على وجهها.. ذبّتها بيدها.. فطارت الذبابة ثم طوفت في أرجاء القاعة ثم عادت لتحط عليها، ولكنها ذبْتها قبل أن تحط على وجهها ذي الحسن الرائع الذي يصدق فيه قول الشاعر:

ترى العيْنُ ما تهوى وفيها زيادةٌ

من اليُمْنِ، إذْ تبدو، وملهىٌ لِمَلْعَبِ

رفع الطالب عينية عن الكتاب وأخذ يتابع المشهد « .. أيتها الحسناء.. حتى الذبابة تدرك جمالك الرائع، ولذلك فهي تُطَوّف في القاعة كلها ثم تعود إليك دون غيرك.. لكأنها تحمل بين جوانحها مرآة مصقولة تدرك الجمال وتتذوقه.. ليت بعض بني البشر يملكون مثل هذه المرآة، أولئك الذين يظنون أن البياض يساوي الجمال.. في حين أن ذلك أبعد ما يكون عن الصواب ».

وعادت الذبابة للمرة الثالثة ولكن الحسناء تنبهت لها وذبتها قبل أن تحط على وجهها.. بعدئذٍ.. قامت الذبابة بحركات غريبة: أخذت تصعد حتى تكاد تلامس السقف ثم تنحط مسرعة، حتى إذا أصبحت على بعد ذراع من رأس الحسناء.. ارتفعت مرة أخرى وقد كررت هذه الحركة، والطالب يلاحظها بطرف عينيه، عشر مرات.. ثم انحطت كالسهم في المرة الحادية عشرة فوقعت على جبين الحسناء قبل أن تتمكن من ذبها، ولكن سرعان ما ذبتها وانطلقت في خط مستقيم حتى خرجت من النافذة كما دخلت، وكر الطالب بنظره إلى وجه الحسناء.. فرأى نقطة سوداء حيث وقعت الذبابة من جبينها، فانقبضت نفسه، وأوشك أن ينبهها إلى ما تركته الذبابة على جبينها.. ولكنه أمسك في اللحظة الأخيرة، ورجع بجذعه إلى الخلف، ثم انكب

ينظر في الكتاب.. «في اعتقادي أن الغزالي كان أصحّ نظرة من ابن رشد.. لأن ابن رشد قدّم قوّة العقل على كل قوّة أخرى في الإنسان، بل قدّم العقل على نصوص الدين، وذلك خلط لأن العقل إحدى قوى الإنسان الأربعة: العقل والروح والعاطفة والجسد، والخير في المواءمة بينها وليس في تغليب إحداها، لأن الإنسان لا يحيا بالعقل وحده. أما الغزالي فقد نظر إلى الإنسان بهذه النظرة الشمولية، ولذلك.. جعل نصوص الدين الصحيحة مقدّمة على العقل.. العقل يعمل في ظلها.. فهماً لها وتفسيراً..» ثم ألقى نظرة على الحسناء فلمح وجهها الملائكي ولمح تلك النقطة السوداء التي تركتها الذبابة... ولا يدري لماذا خطر بباله في تلك اللحظة قول الرسول الكريم: «لو كانت الدُّنيا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّه جناحَ بَعُوضَةٍ، ما سقى الكافرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ...»، ولكنه يعي تماماً لماذا مرّ بخاطره قول الحق تعالى: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ وإِن يَسْلُبْهُمِ الذُّبَابُ شَيئَاً لا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَالِبُ وَالمَطْلُوبُ (٧٣)» صدق الله العظيم.

لم يعد يطيق الجلوس والقراءة، فأطبق الكتاب.. ثم ألقى عليها نظرة عامة وأخذ يضيق منها حتى لم يعد يرى إلا النُّدبة السوداء التي تركتها الذبابة على جبينها وخرج يتخبط إلى غير ما هدف..